

قَصَصُ إِسْلَامِيَّةٍ لِلأَطْفَالِ

عَقْدُ اللُّوْلُو

تأليف
محمد بن عبد الله بن عبد الله

مكتبة
التَّوْبَاتِ

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥



عَقْدُ اللُّوْلُو

الْيَتِّمُ الْمُبَكَّرُ

مَسْعُودٌ شَابٌّ وَسِيمٌ مَمَشُوقُ الْقَامَةِ،

طَيِّبُ الْخُلُقِ عَزِيزُ النَّفْسِ، كَرِيمُ الْأَصْلِ

وَالْمَخْتَدِ، سَخِيٌّ الْيَدِ عَفُ الْلِّسَانِ قَوِيٌّ

الْإِيمَانِ.

صِفَاتُ نَبِيلَةٍ وَهَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ
مَسْعُودٍ، تَعْوِضاً عَنْ فَقْدِهِ عَطْفَ الْأَبِ
وَحَنَانَ الْأُمِّ.

عَاشَ مَسْعُودٌ مِنْذُ الصُّغَرِ يَتِيمَ
الْأَبَوَيْنِ، تُوفِّيتْ أُمُّهُ بَعْدَ وَلَادَتِهِ، بِشَهْرَيْنِ،
فَمَا رَضِعَ مِنْ حَلِيبِهَا إِلَّا قَلِيلاً، وَمَا تَمَتَّعَ
بِحُبِّهَا وَعَطْفِهَا إِلَّا نَزْراً يَسِيراً، فَدَاهَمَتْهَا
الْآلَامُ بَعْدَ الْوِلَادَةِ، فَأَشْغَلَتْهَا عَنْ إِرْضَاعِهِ
وَمُدَاعَبَتِهِ، مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْأُمّهَاتُ السَّلِيمَاتُ،
كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعِينَ الْوَامِقِ الْمُحِبِّ،

وبحنانِ المُشْفِقِ المُفَارِقِ لِمَنْ يُحِبُّ،
فَدُمُوعُهَا الَّتِي تَفِيضُ أَسَى وَحُزْنَاً لَا تَكَادُ
تُفَارِقُهَا، لِأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى دِفْءِ
صَدْرِهَا، وَالْإِرْتَوَاءِ مِنْ لَبَنِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا
تَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَ ذَلِكَ لَهُ، بِسَبَبِ مَا هِيَ فِيهِ
مِنَ التَّوَجُّعِ وَفُتُورِ الْعِزِّ وَهُزَالِ الْبَدَنِ،
فَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَرْعَاهَا وَيُخَفِّفُ مِنْ
آلَمِهَا الْقَاسِيَةِ، لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ لَهُ
وَهِيَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَّا الدُّعَاءَ، وَسِيلاً
مِنَ الدَّمُوعِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، وَكَانَ أَبُوهُ

كَبِيرَ السِّنِّ، رُزِقَ هَذَا الْمَوْلُودَ - مسعوداً -
بعدَ أَنْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، فَهُوَ يَكْدُّ
وَيَكْدَحُ لِتَأْمِينِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ لِأُسْرَتِهِ
الصَّغِيرَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مَالٍ مُدَّخِرٍ،
يُمْكِنُهُ مِنْ عِلَاجِ زَوْجَتِهِ، لَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ
بِمَا تُعَانِي مِنْهُ أُمُّ مَسْعُودٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ
بِالْيَدِ حِيلَةٌ، إِنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ تَقْدِيمِ مَا يُنْقِذُهَا
مِنْ مَرَضِهَا، وَلَا يَمْلِكُ لَهَا إِلَّا الْمَوَاسَاةُ
بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وَالِدُّعَاءِ لَهَا مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ
بِالشِّفَاءِ الْعَاجِلِ، لَقَدْ كَانَ يَذْرِفُ الدَّمُوعَ

سِرّاً لِأَجْلِهَا، وَيَتَأَلَّمُ لِأَلَمِهَا، وَيَتَمَنَّى لَوْ
يُقَدِّمُ لَهَا رُوحَهُ كَيْ تَعِيشَ بِهَا وَتَقْوَى عَلَى
تَرْبِيَةِ ابْنِهَا الصَّغِيرِ، لِأَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا وَهُوَ
فِي هَذِهِ السَّنِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ لِأَبِيهِ، لَكِنْ
هَيْهَاتَ، فَالْأُمُّ فِي تَرَاجُعٍ صَحِّيٍّ وَاضِحٍ،
وَيَبْدُو أَنَّ الْمَنِيَّةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ مِنْهَا، فَهِيَ
تَذْوِي كُلَّ يَوْمٍ، وَتَذْبُلُ مِثْلَ زَهْرَةٍ نَدِيَّةٍ
فُصِلَتْ عَنْ سَاقِهَا وَأَغْصَانِهَا، فَانْقَطَعَ
نُسْغُهَا، وَتَوَقَّفَ وَصُولُ الْغِذَاءِ إِلَيْهَا،
فَجَفَّتْ عُروْقُهَا، وَدَبَّ إِلَيْهَا الْمَوْتُ مُكَشَّراً

عَنْ أَنْيَابِهِ الْقَاطِعَةِ، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ تَخَشَّبْتُ
وَفَارَقْتُ الْحَيَاةَ.

وَتَحَمَّلَ أَبُو مَسْعُودٍ وَحْدَهُ عِيبَ تَرْبِيَةِ
مَوْلُودِهِ، وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْغَرِيبُ عَنْ هَذِهِ
الْبَلَدَةِ، وَحَارَ فِي فَلَذَةٍ كَبِدِهِ، أَيْنَ يَضَعُهُ؟
وَلَكِنْ لَا فَرْجَ إِلَّا بَعْدَ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، لَقَدْ
سَمِعَ جِيرَانُ أَبِي مَسْعُودٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ بَكَاءَ
الصَّغِيرِ يَشْقُ سُكُونَ اللَّيْلِ بِلَا انْقِطَاعٍ،
فَأَقْلَقَ رَاحَتَهُمْ، كَمَا شَدَّ انْتِبَاهَهُمْ إِلَى
وُجُودِ طِفْلِ يَضْرُخُ كَالْمُسْتَغِيثِ، إِنَّهُ مُتَأَلِّمٌ

وَجَائِعٌ، وَهُنَا تَذَكَّرَ أَبُو مُحَمَّدٍ - جَارُ أَبِي

مَسْعُودٍ - الطِّفْلَ الْيَتِيمَ الَّذِي فَقَدَ أُمَّهُ قَبْلَ

أَيَّامٍ، وَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: مَا رَأَيْكَ أَنْ تَكْسِبِي

الْأَجَرَ فِي تَرْبِيَةِ هَذَا الطِّفْلِ الَّذِي فَقَدَ أُمَّهُ،

فَتَرْضِعِيهِ مَعَ ابْنِكَ مُحَمَّدٍ؟ فَأَبَوْهُ كَمَا

تَعْلَمِينَ كَبِيرٌ وَمِسْكِينٌ، لَا يُحْسِنُ تَغْذِيَتَهُ

وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَغْتَنِي بِهِ، فَالطِّفْلُ فِي

هَذِهِ السَّنِ يَحْتَاجُ إِلَى امْرَأَةٍ خَبِيرَةٍ بِشُؤْنِهِ،

وَبِارْضَاعِهِ يُضْبِحُ لَكَ وَلَدٌ بِالرَّضَاعَةِ، فَلَا

تَذَرِينَ أَيْنَ يَكُونُ الْخَيْرُ؟

تَحَرَّكَتْ فِي أُمِّ مُحَمَّدٍ غَرِيزَةُ الْأُمُومَةِ

وَرُوحُ الشَّفَقَةِ وَالْحَنَانِ، فَقَالَتْ: اذْهَبْ إِلَيْهِ

وَأَخْضِرْهُ لِي، سُرَّ أَبُو مُحَمَّدٍ لِقَوْلِهَا،

فَهَبَّ مِنْ فُورِهِ وَانْطَلَقَ إِلَى بَيْتِ جَارِهِ أَبِي

مَسْعُودٍ، فَفَرَعَ الْبَابَ، فَقَامَ أَبُو مَسْعُودٍ

لِيَفْتَحَ الْبَابَ وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ الطَّارِقُ؟ فَقَالَ

أَبُو مُحَمَّدٍ: أَنَا جَارُكَ أَبُو مُحَمَّدٍ، فَفَتَحَ

أَبُو مَسْعُودٍ الْبَابَ وَهُوَ فِي غَايَةِ التَّعَبِ

وَالْإِغْيَاءِ، فَبَادَرَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ بِالْقَاءِ السَّلَامِ

عَلَيْهِ، ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا: مَا بَالُ طِفْلِكَ فِي

هذه الليلة يا أبا مسعود؟ قال أبو مسعود:

آه يا جاري العزيز، لقد حملت أمانة لا

طاقة لي بحملها، كيف يمكن لهذا الطفل

أن يعيش دون أم تُرضعه؟ ولا مال عندي

لأخضر له مُرضعاً، ولا خبرة لي بتربية

الأولاد، أخشى أن يموت بسوء تذبيري

وقلة خبرتي، ثم دمعت عيناه، قال أبو

محمود: هوّن عليك أيّها الجار الطيب،

لقد جاءك الله بالفرج، أتيت لإخذه إلى

زوجتي أم محمود لترضعه مع ولدي

محمود، وَسَيَكُونُ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، سُرَّ
أبو مسعودٍ مِنْ هَذَا الْعَرَضِ الطَّيِّبِ، فَمَسَحَ
دُمُوعَهُ وَأَسْرَعَ إِلَى مَسْعُودٍ فَحَمَلَهُ وَأَعْطَاهُ
إِلَى أَبِي محمود، وَلِسَانُهُ يَلْهَجُ بِالْدُّعَاءِ لَهُ
وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالطُّفْلُ يَعِيشُ فِي كَنَفِ
أُمِّ محمودٍ وَرِعَايَتِهَا، وَأَصْبَحَ لَهُ أَخٌ مِنْ
الرَّضَاعَةِ، فَنشأَ مَعَ أَخِيهِ سَلِيمًا قَوِيًّا، وَكَانَ
بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ يَزُورُهُ أَبُوهُ وَيَدْفَعُ لَهُ مَا
يَسْتَطِيعُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ كِسَاءٍ، وَلَكُمْ كَانَ

سُرُورُهُ عَظِيمًا عِنْدَمَا رَأَاهُ يَمْشِي وَيَرْكُضُ
وَيَلْعَبُ مَعَ أَخِيهِ، لَاهِيًا فَرِحًا، فَقَدْ عَوَّضَتْهُ
أُمُّ مَحْمُودٍ عَنْ حَنَانِ أُمِّهِ وَغَذَّتْهُ بِلَبَانِهَا
الْأَصِيلِ، فَنَشَأَ قَوِيًّا، وَتَمَنَّى أَبُو مَسْعُودٍ أَنْ
يَمْتَدَّ بِهِ الْعُمُرُ كَيْ يَرَاهُ شَابًّا فَتِيًّا يُعِينُهُ فِي
كِبَرِهِ، إِلَّا أَنَّ الْمَنِيَّةَ لَمْ تُمَهِّلْ أَبَا مَسْعُودٍ
لِتَحْقِيقِ هَذَا الْحُلُمِ، فَسُرِعَانَ مَا أَعْجَزَهُ
الْهَرَمُ وَفَارَقَ الْحَيَاةَ، تَارِكًا ابْنَهُ مَسْعُودَ
وَدِيعَةً عِنْدَ جَارِهِ أَبِي مَحْمُودٍ.



مسعود يَتَلَقَّى الْعِلْمَ

أَحْسَ أَبُو مَحْمُودٍ بِالْحِمْلِ الْمُلقَى عَلَى
عَاتِقِهِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي مَسْعُودٍ، لَقَدْ أَضْبَحَ
مَسْعُودٌ أَمَانَةً فِي عُنُقِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ
تَرْبِيَتَهُ تَمَاماً مِثْلَ ابْنِهِ مَحْمُودٍ، لِذَلِكَ رَعَاهُمَا
سَوِيّاً بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا فِي
كِسَاءٍ أَوْ طَعَامٍ، وَلَمَّا بَلَغَا السَّابِعَةَ مِنَ الْعُمُرِ
دَفَعَهُمَا إِلَى الْكُتَابِ لِتَعَلُّمِ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ،

وَاسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ، أَمَّا مَسْعُودٌ

فَقَدْ نَبَغَ فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ، وَأَحَبَّ الْعِلْمَ

وَأَهْلَهُ وَتَمَنَّى لَوْ يَسْتَمِرُّ أَكْثَرَ لِيَنْهَلَ مَزِيدًا

مِنَ الْعِلْمِ، أَمَّا مُحَمَّدٌ فَلَمْ يَرُقْ لَهُ

الاسْتِمْرَارُ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ مَيَّالٌ إِلَى

صَنْعَةِ أَبِيهِ، فَقَدْ كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَعْمَلُ

نَسَاجًا يَنْسُجُ الثِّيَابَ الْفَاحِشَةَ عَلَى نَوَلٍ خَاصِّ

بِهِ، فَيُنْتِجُ مِنْهَا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً؛ مِنْهَا الصُّوفِيَّةُ

وَالْقُطْنِيَّةُ وَالْحَرِيرِيَّةُ، بِحَسَبِ فُصُولِ السَّنَةِ

وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهَا.

وَهَكَذَا خَرَجَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْمَدْرَسَةِ

وَلَا زَمَ أَبَاهُ، وَاسْتَمَرَ مَسْعُودٌ فِي دِرَاسَتِهِ، ثُمَّ

أَتَى إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ وَوَقَفَ أَمَامَهُ بِاسْتِخْيَاءٍ،

وَقَالَ: لَقَدْ أَحْبَبْتُ الْعِلْمَ وَأُرِيدُ أَنْ أَتَلَقَّى

الْمَزِيدَ، وَهَذَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالسَّفَرِ إِلَى مَدِينَةِ

الْبَصْرَةِ، فَفِيهَا حَلَقَاتُ الْعِلْمِ الَّتِي يُدْرَسُ فِيهَا

كِبَارُ الْعُلَمَاءِ، هَكَذَا ذَكَرَ لِي شَيْخِي أَبُو

يُوسُفَ وَقَالَ: إِنِّي سَأَسْتَفِيدُ كَثِيرًا إِذَا لَزِمْتُ

أَهْلَ الْعِلْمِ هُنَاكَ، فَرَدَّ أَبُو مُحَمَّدٍ قَائِلًا: مَا

زِلْتُ صَغِيرًا يَا مَسْعُودُ وَالسَّفَرُ صَعْبٌ عَلَيْكَ،

أَنْتَ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِي، أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكَ
مَكْرُوهٌ فِي سَفَرِكَ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأَكُونُ قَدْ
فَرَّطْتُ فِي نَضْحِكَ وَإِرْشَادِكَ، لَكِنْ مَسْعُوداً
أَصَرَ عَلَى السَّفَرِ، وَشَكَرَ أَبَا مَحْمُودٍ عَلَى
كُلِّ مَا قَدَّمَهُ لَهُ مِنْ تَرْبِيَةٍ صَالِحَةٍ وَحَنَانٍ
مُتَرَعٍ بِالْعَطْفِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمُوَافَقَةَ عَلَى
السَّفَرِ وَالِدُعَاءَ لَهُ بِالتَّوْفِيقِ وَالنَّجَاحِ، فَقَبِلَ أَبُو
مَحْمُودٍ وَشَرَطَ أَنْ يَكُونَ سَفَرُهُ مَعَ قَافِلَةٍ
مَأْمُونَةٍ، وَأَنْ لَا يَغِيبَ عَنْهُ طَوِيلًا فِي الْغُرْبَةِ،
لَكَي يَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فَوَعَدَهُ

بِذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ أُمَّ مَحْمُودٍ أَعَدَّتْ لَهُ زَادًا
لِلطَّرِيقِ، وَزَوَّدَهُ أَبُو مَحْمُودٍ بِعَدَدٍ مِنَ
الدَّرَاهِمِ، ثُمَّ وَدَّعَهُ الْجَمِيعُ مُتَمَنِّينَ لَهُ سَفَرًا
آمِنًا وَمَوْفَقًا، وَهُنَا تَقَدَّمَ مَسْعُودٌ مِنَ وَالِدَيْهِ
بِالرِّضَاعَةِ فَقَبَّلَ يَدَيْهِمَا، وَعَانَقَ أَخَاهُ مَحْمُودًا
وَانْطَلَقَ مَعَ الْقَافِلَةِ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، وَلَمْ
تَسْتَطِعْ أُمُّ مَحْمُودٍ أَنْ تَتِمَّاكَ نَفْسَهَا أَمَامَ هَذَا
الْمَوْقِفِ الْمُؤَثِّرِ، فَتَرَقَّرَتْ عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ
وَقَالَتْ بِصَوْتٍ مَمْرُوجٍ بِالْحَشَرَجَةِ وَالْحُزَنِ:
رَافَقْتُكَ السَّلَامَةَ يَا بُنَيَّ.

مسعود في البصرة

وَصَلَ مَسْعُودٌ إِلَى الْبَصْرَةِ بَعْدَ رَحْلَةٍ
شَاقَّةٍ، قَاسَى خِلَالَهَا فِي الطَّرِيقِ الْمَتَاعِبَ
وَالصُّعَابَ، وَلَكِنَّهُ بَرَّهَنَ عَلَى صَلَابَةِ عُودِهِ
وَتَحَمُّلِهِ لِلْمَشَقَّةِ وَالسَّفَرِ، لَقَدْ كَانَ فِي
الْقَافِلَةِ الشَّابَّ النَّشِيطَ الَّذِي يُقَدِّمُ الْعَوْنَ
وَالْمُسَاعَدَةَ لِزُمَلَائِهِ فِي السَّفَرِ، فَمَا إِنَّ
تَتَوَقَّفُ الْقَافِلَةُ فِي الطَّرِيقِ لِلِاسْتِرَاحَةِ، حَتَّى

يُسَارِعَ إِلَى حَطِّ الْأَثْقَالِ عَنِ الْإِبِلِ
لِإِرَاحَتِهَا، ثُمَّ يَمْلَأُ الْمَاءَ فِي قِرْبَةٍ صَغِيرَةٍ
وَيَدُورُ بِهَا عَلَى الْمُسَافِرِينَ لِيَسْقِيَ الْعَطْشَى،
وَبَعْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْ تَقْدِيمِ الْمَاءِ، يَأْخُذُ
حَبْلًا وَفَأْسًا فَيَحْتَطِبُ وَيوقِدُ النَّارَ تَحْتَ
الْقُدُورِ، وَيُسَاعِدُ فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ، فَكَانَ
هَذَا دَأْبُهُ كُلَّ يَوْمٍ خِلَالَ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا
أَمْضَتْهَا الْقَافِلَةُ فِي الطَّرِيقِ، فَاسْتَحَقَّ مِنَ
الْمُسَافِرِينَ الثَّنَاءَ الْعَظِيمَ، وَالِدُّعَاءَ لَهُ بِالْحِفْظِ
وَالْبَرَكَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَ التُّجَّارِ فِي

الْقَافِلَةَ دَعَاهُ لِيُقِيمَ مَعَهُ فِي مَنْزِلِهِ بِالْبَصْرَةِ
لَمَّا رَأَاهُ مِنْ نَشَاطِهِ وَذَكَائِهِ الْمُتَوَقِّدِ، وَصَبْرِهِ
وَتَقْوَاهُ، فَوَفَّرَ لَهُ هَذَا الْعَرْضَ الْجَيِّدَ
الْمَسْكَنَ الْمُلَائِمَ الَّذِي يَحْتَاجُهُ الْغَرِيبُ فِي
بَلَدٍ لَا يَعْرِفُ فِيهِ أَحَدًا، فَخَصَّصَ لَهُ هَذَا
التَّاجِرُ غُرْفَةً مَعَ مَرَاثِقِهَا، وَقَالَ لَهُ: امْكُثْ
فِيهَا يَا مَسْعُودُ مَا طَابَ لَكَ الْمَكُثُ، فَهَذَا
أَقْلُ شَيْءٍ أَقْدَمُهُ لِشَابٍّ نَشِيطٍ وَأَمِينٍ مِثْلِكَ.

وَاسْتَقَرَّ مَسْعُودٌ بِالْبَصْرَةِ، وَجَالَ عَلَى
مَسَاجِدِهَا، وَتَعَرَّفَ عَلَى عُلَمَائِهَا وَاسْتَمَعَ إِلَى

دُرُوسِهِمْ لَأَيَّامٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ بَيْنِ عُلَمَائِهَا
الشَّيْخَ ابْنَ دِينَارٍ، فَلَا زَمَهُ وَرَأَى عِنْدَهُ الْفَائِدَةَ
الَّتِي يَرْجُوهَا، فَهُوَ عَالِمٌ بِالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وَالتَّفْسِيرِ، لَكِنْ كَانَتْ تُوَاجِهُهُ مَسْعُودًا مُشْكِلَةً
الْإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِهِ، وَتَأْمِينِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ
وَمَلْبَسِهِ، فَهُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَالَةً عَلَى
أَحَدٍ، لِذَلِكَ خَرَجَ يَتَجَوَّلُ فِي أَسْوَاقِ الْبَصْرَةِ
بَاحِثًا عَنْ عَمَلٍ مُنَاسِبٍ لَهُ، فَدَخَلَ فِي سُوقٍ
وَخَرَجَ مِنْ آخَرَ، وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ فِي اخْتِيَارِ
الْعَمَلِ الَّذِي يُنَاسِبُ مَقْدِرَتَهُ.

رَأَى سُوقَ الْحَدَّادِينَ فَلَمْ يُعْجِبْهُ

ضَجِيجُ مَطَارِقِهِمْ، وَلَا سُمُومُ دُخَانِهِمْ

وَلَفْحَةُ كِبَرِهِمْ، وَرَأَى سُوقَ الْخِيَّاطِينَ،

وَبَائِعِي الْأَقْمِشَةِ فَتَوَقَّفَ مَلِيًّا، وَتَأَمَّلَ

أَعْمَالَهُمْ، لَقَدْ أَعْجَبَهُ الْهُدُوءُ عِنْدَهُمْ، لَكِنَّ

الْعَمَلَ فِي الْخِيَّاطَةِ قَدْ يَسْتَغْرِقُ كُلَّ يَوْمِهِ،

فَلَا يَتَبَقَّى فَضْلٌ وَقْتُ لِمُلَازِمَةِ حَلَقَةِ الْعِلْمِ،

فَمَشَى لِسُوقِ آخَرَ وَهُوَ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ مِنْ

التَّعَبِ، ثُمَّ لَفَتْ انْتِبَاهَهُ أَصْوَاتُ مُنَادَاةٍ فِي

سُوقِ آخَرَ قَرِيبٍ، فَتَوَقَّفَ وَأَصَاحَ السَّمْعَ

فَتَبَيَّنَ الْكَلَامَ، وَإِذَا بِهِ إِعْلَانٌ عَنْ بَيْعِ شَيْءٍ
مَا، إِنَّهُ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ الْآنَ، لَعَلَّهُ الْمَزَادُ
الْعَلَنِي، فَتَقَدَّمَ بِضَعِ خُطَوَاتٍ بِاتِّجَاهِهِ
لِيَتَّضِحَ لَهُ الْمَشْهَدُ عَنْ قُرْبٍ، فَرَأَى رَجُلًا
يَحْمِلُ عِدَّةَ كُتُبٍ وَهُوَ يَقُولُ: هِيَ عَلَى
أَبِي زَيْدٍ بِسِتِّينَ، ثُمَّ يَمْشِي خُطَوَاتٍ
وَيَقُولُ: عَلَى أَبِي عُمَرَ بِسَبْعِينَ، ثُمَّ
يَبِيعُهَا، فَتَلْهَفَ قَلْبُهُ لِلْكَتُبِ، ثُمَّ نَظَرَ يَتَأَمَّلُ
مَا حَوْلَهُ فَإِذَا هُوَ بِسُوقِ الْوَرَّاقِينَ، سُوقِ
الْكِتَابَةِ وَيَبِيعُ الْكُتُبِ وَمُسْتَلْزَمَاتِ الْكِتَابَةِ،

فَتَقَدَّمَ مِنْ أَحَدِهِمْ وَبَدَأَ يَتَأَمَّلُ مَا يَكْتُبُ
وَيَخُطُّ، إِنَّهُ يَضَعُ أَمَامَهُ كِتَابًا وَيَنْسَخُ مِثْلَهُ،
هَكَذَا كَانَتْ الْكُتُبُ كُلُّهَا تُكْتُبُ بِخَطِّ الْيَدِ،
فَلَمْ تَكُنِ الْمَطَابِعُ مَعْرُوفَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ،
وَلَكِنْ عَلَى النَّاسِخِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ خَطٍّ
جَمِيلٍ، مَعَ فِطْنَةٍ وَصَفَاءٍ فِي الذَّهْنِ وَعَدَمِ
الشُّرُودِ، لِكَيْ يَنْسَخَ الْكِتَابَ بِلاَ أخطاءٍ أَوْ
تَحْرِيفٍ، لَقَدْ تَحَرَّكَتْ أَنَامِلُ مَسْعُودٍ لِهَذَا
الْمَنْظَرِ، وَتَمَنَّى أَنْ يَعْمَلَ فِي نَسْخِ الْكُتُبِ،
لَأَنَّهُ عَمَلٌ مُلَائِمٌ لَهُ، وَسَوْفَ يَسْتَفِيدُ أَيْضاً

مِنْ هَذَا الْعَمَلِ عِلْمًا وَثِقَافَةً وَتَحْصِيلَ أَجْرٍ،
وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي تَفْكِيرِهِ نَظَرَ إِلَيْهِ
الرَّجُلُ بِبِشَاشَةٍ وَقَالَ: أَتَعْرِفُ الْكِتَابَةَ يَا فَتَى
أَمْ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَلَّمَهَا؟ أَجَابَ مَسْعُودٌ: أَعْرِفُهَا
تَمَامًا وَأَكْتُبُ بِخَطِّ النُّسخِ، قَالَ الرَّجُلُ:
عَظِيمٌ! هَاكَ الْقَلَمَ وَأَكْتُبْ هُنَا (الْعِلْمُ فِي
الصُّغَرِ كَالنَّقْشِ عَلَى الْحَجَرِ). تَنَاوَلَ مَسْعُودٌ
الْقَلَمَ وَكَتَبَهَا بِإِثْقَانٍ، فَأَعْجَبَ الرَّجُلُ بِخَطِّهِ
وَرَأَى فِيهِ فُرْصَةً سَانِحَةً لِمُسَاعَدَتِهِ، فَقَالَ
لَهُ: أَتُسَاعِدُنِي فِي نَسْخِ الْكُتُبِ وَأُعْطِيكَ

كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمًا؟ فَرِحَ مَسْعُودٌ لِهَذَا الْعَرَضِ
وَقَبِلَ الْعَمَلَ بِلَا تَرَدُّدٍ، لَقَدْ هَيَّا اللَّهُ لَهُ
أَسْبَابَ الْعَيْشِ، فَنَظَّمَ وَقْتَهُ بَيْنَ تَحْصِيلِ
الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِ الْكَسْبِ لِلْمَعِيشَةِ، وَجَرَتْ
الْأَيَّامُ، وَمَسْعُودٌ يَزْدَادُ عِلْمًا وَيَتَفَوَّقُ فِي
نَسْخِ الْكُتُبِ، لَكِنَّ دَخْلَهُ كَانَ عَلَى قَدْرِ
مَصْرُوفِهِ، وَإِذَا زَادَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الدَّرَاهِمِ
اِفْتَنَى بِهَا كُتُبًا، لِأَنَّهُ طَالِبُ عِلْمٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ
يُنْشِئَ فِي بَيْتِهِ مَكْتَبَةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا لِلْمُطَالَعَةِ
وَالتَّزْوُدِ بِالْمَعْرِفَةِ.

لَقَدْ أَحَبَّهُ شَيْخُهُ ابْنُ دِينَارٍ، وَرَأَى
عَلَى وَجْهِهِ عِلَامَاتِ النُّبُوغِ وَالنَّجَابَةِ، فَكَانَ
يَخْصُهُ بِنَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الْحُبُّ وَالْإِعْجَابُ،
وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْحُبُّ خَافِيًا عَلَى مَسْعُودٍ إِذْ
كَانَ يُلَاحِظُهُ، فَتَغَمَّرُهُ فَرَحَةٌ كُبْرَى تَدْفَعُهُ
لِمَزِيدٍ مِنَ الاجْتِهَادِ وَالتَّقَرُّبِ مِنَ الشَّيْخِ
الْجَلِيلِ، وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَمَسْعُودٌ فِي غَايَةِ
الرِّضَا وَالسَّعَادَةِ، فَهُوَ مُتَفَوِّقٌ فِي تَخْصِيلِ
الْعِلْمِ، كَمَا هُوَ مُتَفَوِّقٌ فِي عَمَلِهِ أَيْضًا،
فَكَسَبَ مَحَبَّةَ شَيْخِهِ وَمُعَلِّمِهِ، حَتَّى إِنَّ

مُعَلِّمَهُ رَفَعَ أَجْرَهُ إِلَى دِرْهَمَيْنِ فِي الْيَوْمِ،
وَصَارَ يُسْنِدُ إِلَيْهِ نَسْخَ الْكُتُبِ الْكَبِيرَةِ
وَالْمُهَمَّةِ لِثِقَتِهِ بِهِ، فَأُصْبَحَتْ لَهُ مَكَانَةٌ
مَرْمُوقَةٌ فِي السُّوقِ بَيْنَ النَّسَاجِ، أَمَّا التَّاجِرُ
صَاحِبُ الْبَيْتِ فَقَدْ قَرَّرَ الرَّحِيلَ إِلَى بَغْدَادَ،
فَبَاعَ مَشَجَرَهُ وَدَارَهُ لِرَجُلٍ تَبَيَّنَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ
جَشِيعٌ طَمَّاعٌ لَمْ يُقَدِّرْ حَالَةَ مَسْعُودٍ، فَآتَاهُ
لِيُخْبِرَهُ أَنَّهُ أَصْبَحَ مَالِكُ الْبَيْتِ وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ
يَدْفَعَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ فِي الشَّهْرِ لِقَاءِ سَكْنِهِ
فِي الْغُرْفَةِ، أَوْ يَطْرُدَهُ مِنْهَا، فَقَبِلَ مَسْعُودٌ

مَرْغَمًا، وَلِهَذَا الْحَدَثِ الطَّارِئِ أَزْدَادَتْ
نَفَقَاتُهُ، فَعَمِلَ عَلَى الْاِقْتِصَادِ فِي مَضْرُوفِهِ
لِيَسْتَطِيعَ تَسْدِيدَ أَجْرِ الْغُرْفَةِ.



العقد الثمين

مرَّ مسعودٌ بظروفٍ صعبةٍ، فالحياةُ
أصبحتْ باهظةَ التكاليفِ، ودخله لا يكادُ
يُغطي مَصْرُوفَه المتواضعَ، إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَرْفَعَ دَخْلَهُ بِسَبَبِ ضَيْقِ الوَقْتِ الَّذِي
يَعْمَلُ فِيهِ، فَعَمَلُ النِّسْخِ يَحْتَاجُ إِلَى تَفَرُّغٍ
كَامِلٍ، أَمَّا مَسْعُودٌ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَتْرُكَ الدُّرُوسَ وَيَتَفَرَّغَ لِلنِّسْخِ، وَإِلَّا فَلَنْ

يُحَقِّقُ أَمَلَهُ وَحُلْمَهُ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْبَصْرَةِ
مِنْ أَجْلِهِ، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُصْبِحَ عَالِمًا،
وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى الْجِدِّ وَالْمُثَابَرَةِ وَحُضُورِ
حَلَقَاتِ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ
يَهْتَمُّ لِحَالَتِهِ الْمَادِيَّةِ الضَّيِّقَةِ، وَكَانَ
يُحَمِّدُ اللَّهَ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ النُّعَمِ،
صَحِيحٌ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ نُقُودًا مُدْخَرَةً، وَلَكِنْ
فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ مَدِينًا لِأَحَدٍ،
فَكَانَ مَضْرُوفُهُ عَلَى قَدَرِ دَخْلِهِ، وَهُوَ
صَابِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، وَإِنْ كَانَ يَأْمَلُ

مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُسِّرَ لَهُ طَرِيقًا لِلرِّزْقِ،

فَكَانَ يُرَدُّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ

اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] إِنَّهُ يَحْمَدُ اللَّهَ

عَلَى السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَوَّضُهُ

الذِّكَاءَ وَالْفَهْمَ وَسُرْعَةَ الْحِفْظِ بِالْمَالِ، وَمَا

نَفَعُ الْمَالِ الْكَثِيرِ لَوْ كَانَ جَاهِلًا أَوْ تَعْتَرِيهِ

الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ؟! إِنَّ سَعْيَهُ لِلْعِلْمِ لَا

يُوزَانُهُ مَالُ الدُّنْيَا، إِنَّهُ طَرِيقُ النُّورِ وَالْمُتَعَةِ

الْحَقِيقِيَّةِ لِلنَّفْسِ، وَهُوَ عَلَى وَشَكِّ

اسْتِكْمَالِ ذَلِكَ لِيُصْبِحَ عَالِمًا لَهُ سَارِيَةٌ فِي
الْمَسْجِدِ، يَلْتَفُّ حَوْلَهُ الطُّلَابُ، وَبَيْنَمَا كَانَ
مُسْعُوذًا فِي جَوْلَةٍ مَعَ خِيَالِهِ، انْتَبَهَ مِنْ
أَحْلَامِهِ وَوَجَدَ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِلذَّهَابِ
إِلَى عَمَلِهِ، فَتَهَضَّ مُسْرِعًا وَارْتَدَى مَلَابِسَ
الْعَمَلِ وَخَرَجَ قَاصِدًا سُوقَ الْوَرَّاقِينَ، وَفِي
الطَّرِيقِ وَقَعَ بِصَرُّهُ عَلَى شَيْءٍ أَخْضَرَ
جَمِيلٍ، فَتَقَدَّمَ مِنْهُ فَإِذَا صُنْدُوقٌ صَغِيرٌ قَدْ
لَفَّ بِحَرِيرٍ أَخْضَرَ، فَحَمَلَهُ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ
وَعَادَ بِهِ سَرِيعًا إِلَى الْبَيْتِ، فَوَضَعَهُ أَمَامَهُ،

ثُمَّ فَكَّ الْخَيْطَ عَنِ الْقِمَاشِ الْحَرِيرِيِّ، فَإِذَا
الصُّنْدُوقُ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، ثُمَّ فَتَحَ
الصُّنْدُوقَ فَإِذَا بِهِ عِقْدٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ لَمْ تَرَ
عَيْنَاهُ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، لِأَلَّيْهِ كَبِيرَةٌ صَافِيَةٌ
نُظِّمَتْ فِي سِلْكٍ مِنَ الذَّهَبِ، تَشْعُ نُورًا
هَادِيًا كَأَنَّمَا تَعْكِسُ صَفَاءَ الْبَحْرِ الَّذِي
أَخْرَجَتْ مِنْهُ، فَأَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ وَتَمَلَّكَهُ
السَّرُورُ، فَأَمْسَكَ بِالْعِقْدِ وَتَأَمَّلَهُ مَلِيًّا ثُمَّ
أَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ بِلُطْفٍ بَالِغٍ، كَأَنَّمَا خَشِيَ
أَنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ، وَبَدَأَتْ الْأَفْكَارُ تُرَاوِدُهُ

بِشَأْنِ هَذَا الْعِقْدِ، وَبَدَأَ يُتَمِّمُ بِكَلِمَاتٍ
كَثِيرَةٍ وَهُوَ فِي غَمْرَةِ الْفَرَحِ: يَا اللَّهُ لِمَنْ
هَذَا الْعِقْدُ النَّادِرُ؟ أَهُوَ لَابْنَةِ مَلِكٍ أَمْ
وَزِيرٍ؟! كَمْ يُسَاوِي ثَمَنُهُ يَا تُرَى؟ آلاَفُ
الدَّنَانِيرِ، سَأَوَدُّعُ الْفَقْرَ، لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهِ
بِقُدْرَةِ اللَّهِ لِيُفَرِّجَ عَنِّي كُرْبَتِي، وَيُخْرِجَنِي
مِنْ ضَيْقِ الْفَقْرِ إِلَى سَعَةِ الْغِنَى، ثُمَّ عَادَ
إِلَى رُشْدِهِ وَوَعْيِهِ وَقَالَ: أَيُوجَدُ عِقْدٌ
وَصُنْدُوقٌ ذَهَبِيٌّ بِلاَ مَالِكٍ لَهُ؟ مِنْ أَيْنَ
أَتَى؟ وَكَيْفَ جَاءَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟ لَا بُدَّ

لَهُ مِنْ مَالِكَ فَقَدَهُ، وَهُوَ الْآنَ يَبْحَثُ
عَنْهُ، وَبَيْنَمَا مَسْعُودٌ يَسْرَحُ فِي تَخَيُّلاتِهِ،
إِذَا بِهِ يَسْمَعُ صَوْتًا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّمَا يُنَادِي
عَلَى شَيْءٍ مَفْقُودٍ، وَهِيَ عَادَةُ أَهْلِ ذَلِكَ
الزَّمَانِ، فَالَّذِي يَفْقِدُ مَالًا أَوْ مَتَاعًا يُخْرِجُ
مُنَادِيًا يُنَادِي عَلَى الْمَفْقُودِ، وَيُعْطِي أَوْصَافَهُ
كَامِلَةً وَهُوَ يَتَجَوَّلُ فِي شَوَارِعِ الْبَلَدَةِ
وَحَارَاتِهَا، فَيَقِفُ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَوْ مُنْعَطَفٍ
بُرْهَةً، وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ ذَاكِرًا الشَّيْءَ
الضَّائِعَ وَصِفَاتِهِ، وَيُطِيلُ الْمُنَادَاةَ وَالْوُقُوفَ

خُصُوصاً فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ فَقَدَهُ
فِيهِ .

أَصْغَى مَسْعُودٌ إِلَى الصَّوْتِ مَلِيّاً،
وَكَانَ يَقْتَرِبُ بِاتِّجَاهِهِ، فَسَمِعَهُ يَقُولُ: يَا
مُسْلِمُونَ! مَنْ وَجَدَ صُنْدُوقاً ذَهَبِيّاً فِيهِ عِقْدٌ
مِنَ اللُّؤْلُؤِ قَدْ لُفَّ بِإِبْرِيْسَمٍ أَخْضَرَ فَلْيُرِدِّهِ
إِلَيْنَا، وَلَهُ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ مُكَافَأَةً لَهُ،
يَأْخُذَهَا حَلَالاً مِنْ صَاحِبِ الْعِقْدِ.

سَمِعَ مَسْعُودٌ الْمُنَادِيَ بِشَكْلِ وَاضِحٍ
وَجَلِيٍّ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِذَا لِهَذَا الْعِقْدِ

صَاحِبٌ يَسْأَلُ عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، سَأَرُدُّهُ
إِلَيْهِ، إِنَّ هَذَا الْعِقْدَ وَدِيعَةٌ عِنْدِي، وَهَذَا
امْتِحَانٌ مِنَ اللَّهِ لِأَمَانَتِي، لَقَدْ دَرَسْتُ
وَتَعَلَّمْتُ وَحَفِظْتُ الْقُرْآنَ، وَعَرَفْتُ الْحَلَالَ
مِنَ الْحَرَامِ، إِنَّ هَذَا الْعِقْدَ لَيْسَ لِي،
وَحَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَنْكِرَهُ، وَنَازَعْتُهُ فِي هَذِهِ
اللَّحَظَاتِ الْحَاسِمَةِ أَفْكَارٌ كَثِيرَةٌ، وَظَهَرَ لَهُ
الشَّيْطَانُ مَلِيًّا فِي فِكْرِهِ وَحَوَاسِهِ، وَهُوَ
يُوسَّوسُ لَهُ: خُذْهُ أَيُّهَا الْفَقِيرُ، إِنَّكَ بِحَاجَةٍ
لِثَمَنِهِ، سَتَكُونُ غَنِيًّا مَدَى الدَّهْرِ، لَوْ لَمْ

يَكُنْ صَاحِبُهُ غَنِيًّا لَمَّا مَلَكَ مِثْلَ هَذَا
الْعِقْدِ، فَأَمْوَالُهُ كَثِيرَةٌ وَسَهْلٌ عَلَيْهِ أَنْ
يَشْتَرِيَ مِثْلَهُ، أَمَّا أَنْتَ فَفَقِيرٌ مُعْدِمٌ بِحَاجَةٍ
إِلَى الْمَالِ لِتَشْتَرِيَ بِهِ بَيْتًا وَتَتَابَعَ دِرَاسَتِكَ،
فَهَؤُلَاءِ الْمُتَشْرِفُونَ لَا يَنْبَغِي لِلْفُقَرَاءِ أَمْثَالِكَ
أَنْ يُسَاعِدُوهُمْ، فَمَا يُذَرِّكَ رَبُّمَا لَمْ يَدْفَعْ
زَكَاةَ أَمْوَالِهِ لِلْفُقَرَاءِ فَاِبْتَلاَهُ اللَّهُ بِفَقْدِ هَذَا
الْعِقْدِ، وَهَكَذَا ظَلَّ الصَّوْتُ الشَّيْطَانِي يُزَيِّنُ
لَهُ أَخْذَ الْعِقْدِ، وَيُوسَّسُ لَهُ بِصَوْتِ خَفِيِّ:
خُذْهُ، خُذْهُ، لَكِنَّ مَسْعُوداً انْتَصَرَ عَلَى

شَيْطَانِهِ، فَانْتَفَضَ بِقُوَّةٍ وَهَتَفَ: لَا... لَا...

لَيْسَ هَذَا مِنْ حَقِّي فَمَالِكُهُ قُرْبَ بَيْتِي مَعَ

الْمُنَادِي الَّذِي يُغْلِنُ عَنْ فَقْدِ الْعَقْدِ، وَإِنَّهُ

يَبْدُو مُتَأَلِّمًا لِفَقْدِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا

خَرَجَ مَعَ الْمُنَادِي يَبْحَثُ عَنْهُ، وَيَعْرِضُ

مُكَافَأَةً لِمَنْ يُعِيدُهُ إِلَيْهِ، خَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ،

إِنَّهُ مَبْلَغٌ كَبِيرٌ، وَبِهَذَا الْمَبْلَغِ سَأَغْتَنِي وَتَحُلُّ

مُشْكِلَاتِي كُلَّهَا، وَهُوَ بِالتَّالِي حَلَالٌ لِأَنَّهُ

خَرَجَ مِنْ صَاحِبِهِ عَنْ رِضَا وَسَمَاحَةِ نَفْسٍ،

ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ بِسُرْعَةٍ وَنَادَى صَاحِبَ

العِقدِ، وَكَانَ رَجُلًا شَيْخًا كَبِيرًا وَقُورًا
وَضَاءَ الْوَجْهِ رَغَمَ سُمُرَتِهِ، عَلَيْهِ سِيمَا
التَّدِينِ وَالصَّلَاحِ، فَقَالَ مَسْعُودٌ: إِنَّ الْعِقدَ
الَّذِي تَبَحْتُ عَنْهُ عِنْدِي أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَتَعَالَ
إِلَى بَيْتِي وَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ، سُرَّ الشَّيْخُ مِنْ
قَوْلِ مَسْعُودٍ وَكَادَ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ، لَقَدْ
انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ وَانْزَاحَ عَنْهُ هَمٌّ كَثِيبٌ،
فَتَقَدَّمَ مِنْ مَسْعُودٍ وَقَالَ لَهُ: أَيْنَ هُوَ؟ قُلْ
لِي بِرَبِّكَ أَيْنَ هُوَ؟ فَأَخْرَجَ مَسْعُودٌ
الصُّنْدُوقَ مِنْ خَلْفِ الْوِسَادَةِ وَقَالَ: انْظُرْ

مَلِيًّا لِّتَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ، أَهَذَا مَا كُنْتَ تَبْحَثُ
عَنْهُ؟ أَخَذَهُ الشَّيْخُ بِلَهْفَةٍ ثُمَّ فَتَحَهُ وَقَالَ:

إِنَّهُ هُوَ إِيَّيَ وَرَبِّي، يَا لَكَ مِنْ شَابٍّ
أَمِينٍ، أَمِينٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ رَأْسَ مَسْعُودٍ وَأَنْهَالَ
عَلَيْهِ لُثْمًا وَتَقْبِيلًا، أَنْتَ تَسْتَحِقُّ الْمُكَافَأَةَ..

نَعَمْ تَسْتَحِقُّهَا، وَلَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ أَكْثَرَ مِنْ
ذَلِكَ لَأَعْطَيْتُكَ فَاغْذُرْنِي يَا وَلَدِي، ثُمَّ قَدَّمَ

لِمَسْعُودٍ كَيْسًا فِيهِ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ، تَرَدَّدَ

مَسْعُودٌ فِي أَخْذِ الْكَيْسِ وَنَظَرَ إِلَى الشَّيْخِ

بِعَيْنِ الرَّأْفَةِ وَالْعَطْفِ، وَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ:

لِمَاذَا أُغْرِمْتُهُ هَذَا الْمَالَ؟ أَيْنَ ثَوَابُ اللَّهِ؟ إِنَّهُ

أَكْبَرُ مِنَ الْجَائِزَةِ، وَقَدْ يَكُونُ فِعْلاً بِحَاجَةٍ

إِلَى هَذَا الْمَبْلَغِ، وَلَيْسَ يَمْلِكُ غَيْرُهُ فَاضْطُرَّ

لِرَفْعِ قِيَمَةِ الْجَائِزَةِ لِقَاءِ اسْتِرْدَادِ الْعَقْدِ، إِنَّهَا

لَيْسَتْ مِنْ حَقِّي، فَالْشَّيْءُ الضَّائِعُ يَجِبُ أَنْ

يُرَدَّ إِلَى صَاحِبِهِ مِنْ غَيْرِ شُرُوطٍ أَوْ

مُكَافَأَةٍ، هَكَذَا تَعَلَّمْتُ فِي الْفِقْهِ، وَمَرَّتْ

لِحِظَةٍ صَمِتَ ظَنَّ الشَّيْخُ خِلَالَهَا أَنَّ الْمَبْلَغَ

لَمْ يُعْجَبْ مَسْعُوداً، وَحَسِبَ أَنَّهُ نَدِمَ عَلَى

رَدِّ الْعَقْدِ، فَقَالَ الشَّيْخُ: أَخْبَرْتُكَ يَا وَلَدِي

أَنِّي لَا أَمْلِكُ غَيْرَ هَذَا الْمَبْلَغِ، وَأَنَا
غَرِيبٌ، لَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِأُصْلِحَ
العِقْدَ، وَأَضَعُ فِيهِ سِلْسِلَةً مِنَ الذَّهَبِ، ثُمَّ
ضَاعَ مِنِّي، أَرْجُوكَ اقْبَلْ هَذَا الْمَبْلَغَ فَفِيهِ
بَرَكَهٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهُنَا صَحَابَةٌ مَسْعُودٌ مِنْ
سَرَخَانَ خِيَالِهِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَانْتَبَهَ
لِكَلَامِ الشَّيْخِ فَقَالَ: لَا أَتِيهَا الشَّيْخُ، فَإِنَّا لَا
أُرِيدُ مِنْكَ ثَمَنًا لِمَعْرُوفِي، لَقَدْ رَدَدْتُ الْعِقْدَ
اِحْتِسَابًا لِلَّهِ، وَأَرْجُو مِنْهُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ،
خُذْ عِقْدَكَ وَعُدْ رَاشِدًا إِلَى بَلَدِكَ رَافِقْتُكَ

السَّلَامَةُ. لَمْ يُصَدِّقِ الشَّيْخُ مَا سَمِعَتْهُ
أُذُنَاهُ، لَقَدْ أَصَابَتْهُ الدَّهْشَةُ مِنْ قَوْلِ
مَسْعُودٍ، شَابٌّ فَقِيرٌ مِثْلُهُ يَسْتَغْنِي عَنْ
الْجَائِزَةِ، مَا هَذِهِ النَّفْسُ الْأَبِيَّةُ وَالْقَنَاعَةُ
وَالزُّهْدُ فِيمَا عِنْدَ الْآخِرِينَ؟ إِنَّ هَذَا لَا
يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ شَابٍّ مُؤْمِنٍ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ
مِنْ مُكَافَأَةٍ لَهُ، وَأَلَحَّ الشَّيْخُ عَلَى مَسْعُودٍ
أَنْ يَأْخُذَ الْجَائِزَةَ، لَكِنَّ مَسْعُوداً أَبَى وَقَالَ:
ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ، ثُمَّ وَدَّعَهُ الشَّيْخُ وَانْصَرَفَ
مَسْرُوراً بِاسْتِرْدَادِ الْعَقْدِ، وَكَانَ سُرُورُهُ أَكْثَرَ

أَنَّهُ وَجَدَ شَابًا عَفِيفَ الْيَدِ قَوِيَّ الْإِيمَانِ
مِثْلَ مَسْعُودٍ، وَقَالَ: مَا زَالَتِ الدُّنْيَا بِخَيْرٍ
وَمَا زَالَ الدِّينُ قَوِيًّا رَاسِخًا فِي هَذِهِ
الْبِلَادِ.



النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

عَادَ مَسْعُودٌ إِلَى مُزَاوَلَةِ عَمَلِهِ بِقَلْبٍ
نَابِضٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ،
وَاعْتَبَرَ الْعِقْدَ وَمَا حَدَثَ بِشَأْنِهِ كَالْحُلْمِ أَتَى
وَرَاحَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَنْدَمَ عَلَى مَا فَعَلَ، إِنَّ
تَصَرُّفَهُ بِشَأْنِ الْعِقْدِ أَمَلَتْهُ عَلَيْهِ عَقِيدَتُهُ، فَهُوَ
تَصَرَّفَ سَلِيمٌ، لَقَدْ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ التَّجَرِبَةِ
قَوِيَّ الْإِيمَانِ، وَاثِقَ النَّفْسِ، فَالْعِقْدُ كَانَ

بِمَثَابَةِ امْتِحَانٍ لَهُ، وَهِيَ هُوَ ذَا - بِحَمْدِ اللَّهِ
- يَنْجَحُ فِي الامْتِحَانِ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالسُّنُونُ، فَارْتَقَى عِلْمُ
مَسْعُودٍ، وَزَادَ أَجْرُهُ عَلَى الْكِتَابَةِ، وَلَكِنْ
حَدَّثَ فِي الْبَلَدَةِ أَنَّ شَحَّ مِنْهَا الْوَرَقُ،
وَأَصْبَحَ سُوقُ الْوِرَاقَةِ يُعَانِي مِنْ قِلَّةِ الْوَرَقِ،
فَضَعُفَ التَّأْلِيفُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْكِتَابَةِ،
وَارْتَفَعَتْ أَسْعَارُ الْوَرَقِ، فَأَصْبَحَ الْكِتَابُ
مُكْلِيفًا جَدًّا، وَأَمَامَ هَذِهِ الْأَزْمَةِ الْوَرَقِيَّةِ،
قَالَ مُعَلِّمُ مَسْعُودٍ: مَا رَأَيْكَ يَا مَسْعُودُ فِي

رَحْلَةً إِلَى بِلَادِ الصِّينِ؟ أَجَابَ مَسْعُودٌ:
وَلِمَاذَا يَا مُعَلِّمِي؟ قَالَ: لِتَتَعَلَّمَ صِنَاعَةَ
الْوَرَقِ، وَتُحْضِرَ مَعَكَ كُلَّ مَا يَلْزَمُ لِذَلِكَ،
فَنَحْنُ أَهْلُ حِرْفَةِ الْوِرَاقَةِ لَنْ تَصْلَحَ مَعِيشَتُنَا
إِلَّا عَلَى تَوْفْرِ الْوَرَقِ، فَإِذَا انْقَطَعَ أَوْ شَحَّ
ضَاقَتْ حَالُنَا، فَعَلَيْنَا أَنْ نُوفِّرَهُ فِي بِلَادِنَا
وَنُصْنِّعَهُ عِنْدَنَا كَيْ لَا نَقَعَ فِي الْأَزْمَاتِ
الْخَانِقَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً، خُصُوصاً وَأَنَّ عُلَمَاءَ
الْمُسْلِمِينَ مُقْبِلُونَ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ،
فَيَجِبُ أَنْ يُرَافِقَ هَذَا الْإِقْبَالَ تَقَدُّماً فِي

صِنَاعَةِ الْوَرَقِ وَتَوْفِيرِهِ، لِتَنْشِطِ الْحَرَكَهٕ

الْعِلْمِيَّةٕ، وَنَكُونَ قَدْ سَاهَمْنَا فِي انْتِشَارِ

الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، سُرَّ مَسْعُودٌ لِهَذَا الْعَرْضِ،

وَأَبْدَى مُوَافَقَتَهُ عَلَى السَّفَرِ، وَوَعَدَ بِأَنْ

يَكُونَ مَحَلَّ ثِقَةٍ مُعَلِّمِهِ، وَأَنْ يَبْذُلَ قُضَارَى

جُهِدِهِ لِيَعُودَ إِلَى أَرْضِ الْوَطَنِ سَرِيعاً وَهُوَ

مَثْقَنٌ لِصِنَاعَةِ الْوَرَقِ الصَّقِيلِ، كَمَا صَمَّمْ

أَنْ يَكُونَ سَفَرُهُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ سَفَرًا دَعْوَةً

لِنَشْرِ الْإِسْلَامِ بِأَسْلُوبٍ حَسَنِ مُقْنِعٍ، لِيُنْقِذَ

أَهْلَهَا مِنْ ضَلَالِ الْفِكْرِ الَّذِي يَخْيُونُ فِيهِ

إِلَى نُورِ الْإِسْلَامِ، فَيَنْقُلُهُمْ بِذَلِكَ نَقْلَةً
حَضَارِيَّةً رَائِعَةً يَجْمَعُونَ فِيهَا إِلَى جَانِبِ
الْعِلْمِ خُلُقَ الْمُسْلِمِ الرَّفِيعِ، وَقَلْبَهُ الْخَافِقَ
بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.



الرحلة

انطلق مسعودٌ مِنْ مِينَاءِ الْبَصْرَةِ عَلَى
مَثْنٍ سَفِينَةٍ شِرَاعِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، تَحْمِلُ عَلَى
مَتْنِهَا عَشْرَاتِ الْمُسَافِرِينَ وَكَمِيَّاتٍ مِنَ
الْبَضَائِعِ إِلَى بِلَادِ الشَّرْقِ، فَكَانَ مِنْهُمْ
التَّاجِرُ وَالْعَامِلُ وَالْمُعَلِّمُ وَالنِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ،
وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الْإِنْبَحَارِ تَجَاوَزَتِ السَّفِينَةُ
خَلِيجَ الْعَرَبِ، وَأَصْبَحَتْ تُبْحِرُ فِي خَلِيجِ

عَمَانٌ، وَقَبْلَ التِّقَاءِ هَذَا الْبَحْرُ بِالْمُحِيطِ
الْهِنْدِيِّ، هَبَّتِ الرِّيحُ الْمَوْسِمِيَّةُ الشَّدِيدَةُ،
وَتَبِعَتْهَا عَوَاصِفُ هَوَجَاءٍ رَهِيْبَةٍ، اهْتَزَّتْ لَهَا
السَّفِينَةُ بِعُنْفٍ، وَكَسَّرَتْ بَعْضَ أَشْرِعَتِهَا،
فَفَقَدَ رُبَّانُ السَّفِينَةِ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا وَأَضْبَحَتْ
السَّفِينَةُ كَرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ لَا يُعْرِفُ
لَهَا اتِّجَاهًا، وَاكْفَهَرَ الْجَوُّ وَتَلَبَّدَتِ السَّمَاءُ
بِالْغُيُومِ السَّوْدَاءِ، وَخَيَّمَتْ فَوْقَ الْبَحْرِ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَخَافَ
الْمُسَافِرُونَ وَضَجُّوا إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ

وَالْتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ، وَتَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ

بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَأَصْبَحَ مَصِيرُهُمْ مَجْهُولًا،

فَهُوَ مُؤَزَّجٌ مَا بَيْنَ الْغَرَقِ وَالنَّجَاةِ، وَرُبَّانُ

السَّفِينَةِ وَمُسَاعِدُوهُ عَاجِزُونَ عَنْ فِعْلِ أَيِّ

شَيْءٍ أَمَامَ هَذَا الْخَطَرِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا

مِثْلَ هَذِهِ الْعَاصِفَةِ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ طَلَبَ رَبَّانُ

السَّفِينَةِ مِنَ الرُّكَّابِ تَخْفِيفَ الْأَحْمَالِ

وَالْقَائِيهَا فِي الْبَحْرِ، فَفَعَلُوا وَضَحُّوا بِأَمْتِعَتِهِمْ

وَأَمْوَالِهِمْ رَجَاءَ إِنْقَازِ أَرْوَاحِهِمْ، وَلَكِنْ لَمْ

يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَالْعَوَاصِفُ فِي اسْتِدَادِ

وَالْكَارِثَةُ وَشَيْكَةٌ، لَقَدْ خَافَ جَمِيعُ مَنْ فِي
السَّفِينَةِ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَفَتَرَتْ
هِمَّةُ الرِّجَالِ كَأَنَّمَا أُصِيبُوا بِالشَّلْلِ، ثُمَّ
أَقْبَلَتْ مَوْجَةٌ عَاتِيَةٌ كَأَنَّهَا جَبَلٌ مُتَحَرِّكٌ
صَدَمَتِ السَّفِينَةَ بَعْنَفٍ فَحَطَّمَتَهَا، وَمَزَّقَتَهَا
شَرَّ مُمَزَّقٍ، فَتَنَاثَرَتْ أَشْلَؤُهَا فَوْقَ لُجَّةِ
الْمَاءِ الصَّاخِبَةِ، وَتَسَاقَطَ الْمُسَافِرُونَ فِي
الْبَحْرِ، فَكَانُوا مَا بَيْنَ غَرِيقٍ ضَائِعٍ أَوْ
مَكْلُومٍ يَبِينُ مَا لَبِثَ أَنْ خَفَتِ صَوْتُهُ ثُمَّ
اخْتَفَى، وَمَا بَيْنَ سَابِحٍ مُتَشَبِّثٍ بِخَشَبَةٍ

طَافِيَةٍ أَوْ عَمُودٍ أَوْ سَارِيَةٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْجُو

بِنَفْسِهِ دُونَ الْإِلْتِفَاتِ لِغَيْرِهِ، فَقَدْ شُغِلَ كُلُّ

وَاحِدٍ بِهَمِّهِ وَمَصِيرِهِ، أَمَّا مَسْعُودٌ فَقَدْ طَارَ

فِي الْهَوَاءِ بِفِعْلِ الْعَاصِفَةِ ثُمَّ ارْتَمَى فِي

الْبَحْرِ بِعُنْفٍ، وَلِحُسْنِ حَظِّهِ أَنَّهُ سَبَّاحٌ

مَاهِرٌ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْفُوَ بَعْدَ أَنْ غَاصَ

عَمِيقًا فِي الْمَاءِ، وَلَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُ السَّبَّاحُ

أَمَامَ هَذَا الْهَوْلِ وَفِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهَائِجِ؟

وَكَمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْبَحَ وَهُوَ فِي بَحْرِ لَا

سَاحِلَ لَهُ؟! فَكَانَ يَغْلُو مَعَ الْمَوْجِ

وَيَنْخَفِضُ، يُقَاوِمُ الْغَرَقَ وَالْمَوْتَ بَازِلًا كُلَّ
طَاقَتِهِ لِلنَّجَاةِ، وَبَيْنَمَا هُوَ يُصَارِعُ الْمَوْجَ
الْعَنِيفَ، رَأَى لَوْحًا خَشَبِيًّا طَافِيًا قَرِيبًا مِنْهُ،
فَسَبَحَ نَحْوَهُ وَتَعَلَّقَ بِهِ، ثُمَّ عَلَاهُ وَثَبَّتَ
نَفْسَهُ فَوْقَهُ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ، وَقَالَ:
يَا رَبِّ لَقَدْ أَسْلَمْتُ إِلَيْكَ نَفْسِي وَرُوحِي،
يَا مُنْجِي يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْغَرَقِ
نَجِّنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَأَنْطَلَقَ اللَّوْحُ
الْخَشَبِيُّ مَعَ مَوْجِ الْبَحْرِ وَمَسْعُودٌ لَا يَذْري
إِلَى أَثْنٍ، وَحَلَّ الظَّلَامُ وَاللَّوْحُ فِي جَرَيَانٍ،

ثُمَّ طَلَعَ النَّهَارُ وَسَادَ الْهُدُوءُ، وَلَكِنْ قُوَى
مَسْعُودٍ كَادَتْ تَخُورُ مِنْ طُولِ الْمُدَّةِ فِي
مُصَارَعَةِ الْأَمْوَاجِ، لَقَدْ شَعَرَ بِالتَّعَبِ الْبَالِغِ،
وَالْإِزْهَاقِ الشَّدِيدِ إِضَافَةً إِلَى الْجُوعِ
وَالْعَطَشِ، وَبَدَأَتْ قُوَاهُ تَضَعُفُ عَنِ الْإِمْسَاكِ
بِاللُّوحِ الْخَشَبِيِّ، فَانْتَبَهَ لِنَفْسِهِ ثُمَّ رَاوَدَتْهُ
فِكْرَةٌ مُوَفَّقَةٌ، لَقَدْ تَحَسَّسَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَإِذَا
عِمَامَتُهُ الَّتِي شَدَّهَا عَلَى رَأْسِهِ بِإِحْكَامٍ -
كَيْ تُقَاوِمَ شِدَّةَ الْعَاصِفَةِ - مَا زَالَتْ مُحْكَمَةً
الشَّدِّ، فَحَلَّهَا ثُمَّ لَفَّ بِهَا جِسْمَهُ مَعَ اللَّوْحِ

لَفًا مُحْكَمًا وَاتَّبَعَ ذَلِكَ بِعُقْدَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَصْبَحَ
كَأَنَّهُ مُلْتَصِقٌ بِاللُّوحِ، وَبَقِيَتْ يَدَاهُ حُرَّتَانِ
فَاسْتَخْدَمَهُمَا فِي التَّجْدِيفِ، ثُمَّ قَالَ:
﴿يَسْمِ اللَّهَ بِجَرْدِهَا وَمُرْسَهَا﴾ وَبَعْدَ فِتْرَةٍ بَلَغَ
حَالَةً مِنَ التَّعَبِ وَالْإِغْيَاءِ، فَأَخَذَتْهُ سِنَّةٌ مِنَ
النَّوْمِ، ثُمَّ رَاحَ فِي غَيْبُوبَةٍ طَوِيلَةٍ وَالْأَمْوَاجُ
تَتَقَادَفُهُ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لَا يَذَرِي، ثُمَّ فَتَحَ
عَيْنَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مُحَاطٌ بِأَنَاسٍ سُمِرِ الْوُجُوهَ،
مَا لَبِثُوا حِينَ رَأَوْهُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ حَتَّى تَبَسَّمُوا
وَاسْتَبَشَرُوا خَيْرًا، وَقَالُوا لَهُ: ابْنُ كَمَا أَنْتَ

لَا تَتَحَرَّكَ لِكَيْ تَتَّمَائِلَ لِلشِّفَاءِ التَّامِ، وَبَعْدَ
أَيَّامٍ عَادَ إِلَيْهِ نَشَاطُهُ وَصَحَا تَمَاماً مِنْ
غَيْبُوبَتِهِ، فَسَأَلَ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ،
فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ فِي جَزِيرَةِ الْقَمَرِ، لَقَدْ
وَجَدْنَاكَ عَلَى السَّاحِلِ مَشْدُوداً إِلَى لَوْحِ
خَشَبِيٍّ وَأَنْتَ فِي الرَّمَقِ الْأَخِيرِ، فَحَمَلْنَاكَ
إِلَى زَعِيمِ الْجَزِيرَةِ الَّذِي اعْتَنَى بِكَ عَلَى
مَدَى عَشْرَةِ أَيَّامٍ، إِلَى أَنْ عَادَ لَكَ وَغِيكَ
كَمَا أَنْتَ الْآنَ، وَكَانُوا يُكَلِّمُونَهُ بِلُغَةٍ فِيهَا
كَثِيرٌ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، لِذَلِكَ فَهَمَّ

بَعْضَ كَلَامِهِمْ تَقْرِيبًا، وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ
سَمِعَ أَذَانًا فَسَّرَ كَثِيرًا وَانْفَرَجَتْ نَفْسُهُ وَزَالَ
هَمُّهُ وَخَوْفُهُ، وَقَالَ: أَسْمَعُ الْأَذَانَ، أَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقَدْ أَسْلَمَ أَجْدَادُنَا
عَلَى أَيْدِي عَدَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الَّذِينَ مَرُّوا
بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَنَحْنُ تَابِعُنَاهُمْ عَلَى
الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّا لَا نَعْرِفُ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا
الْقَلِيلَ، وَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ
التَّعْلَمِ وَحِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَأَكْثَرْنَا لَا
يَعْرِفُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا قِصَارَ السُّورِ، فَقَالَ:

أَبَشِّرُوا، لَقَدْ سَأَقِنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ سَأَعْلَمُكُمْ
كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ
وَاسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ، إِنَّهُ لَا يَزَالُ
يُعَانِي مِنْ آثَارِ التَّعَبِ وَالْإِرْهَاقِ.



شَيْخُ الْجَزِيرَةِ

أَصْبَحَ مَسْعُودٌ مَقْصِدَ سُكَّانِ الْجَزِيرَةِ
لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ، وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهِ، فَهُوَ الْعَرَبِيُّ
صَاحِبُ النَّسَبِ الشَّرِيفِ، فَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ نَزَلَ
عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ، وَالْعَرَبُ هُمْ
أَصْحَابُ الدَّعْوَةِ الْأُولَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُمْ
الْآنَ أَعَزُّ دَوْلَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،
يَحْكُمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا وَشِمَالَهَا

وَجَنُوبَهَا، وَمَسْعُودٌ هُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَإِذَا
مَا رَأَوْهُ فَكَأَنَّمَا رَأَوْا أُمَّةَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً،
وَزَادَ مِنْ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى الشَّيْخِ مَسْعُودٍ
حُبُّهُمْ لِلِاسْتِمَاعِ إِلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الَّتِي
أَقَامَهَا، لَقَدْ أَصْبَحَ مَدْرَسَةً فِي عُلُومِ الدِّينِ
الْإِسْلَامِيِّ، فَهُوَ مُعَلِّمٌ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ
الْوَحِيدِ، كَمَا جَعَلَ الْمَسْجِدَ مَدْرَسَةً يَوْمُهَا
الصَّبَا وَالْكِبَارُ، فَبَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ يُقِيمُ
دُرُوساً فِي حِفْظِ الْقُرْآنِ وَتَرْتِيلِهِ، ثُمَّ
يُخَصِّصُ سَاعَةً لِفَقْهِ الْعِبَادَاتِ، لِأَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ

مَاسَّةٌ إِلَيْهِ، فَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ
خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» وَسَاعَةً لِتَعْلَمَ اللُّغَةَ
العَرَبِيَّةَ، وَقَدْ سَاعَدَهُ عَلَى التَّفَاهُمِ مَعَ
النَّاسِ، وَجُودُ أَشْخَاصٍ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ
يَتَكَلَّمُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، فَقَدْ عَرَفُوهَا مِنْ
خِلَالِ أَسْفَارِهِمْ إِلَى عَدَدٍ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ
الْجَنُوبِيَّةِ كَالْيَمَنِ وَعُمَانَ، وَخُصِّصَ الْوَقْتُ
مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ لِلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ
وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَغَدَاً مَسْعُودٌ شَيْخُ الْجَزِيرَةِ
وَعَالِمُهَا بِلا مُنَازَعٍ، لَقَدْ تَحَقَّقَ حُلْمُهُ الَّذِي

تَمَنَّاهُ عِنْدَمَا كَانَ طَالِبًا، وَهَآ هُوَ ذَا يُدْرَسُ

وَيُفْتِي، وَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي حَلِّ

مُشْكَلَاتِهِمْ، وَلِقَاءَ هَذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ الَّذِي

قَامَ بِهِ مَسْعُودٌ، خَصَّصَ لَهُ سُكَّانُ الْجَزِيرَةِ

مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ يَدْفَعُونَهُ لَهُ كُلَّ شَهْرٍ، وَلَمَّا

امْتَدَّ بِهِ الْمَقَامُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، عَرَضَ عَلَيْهِ

زَعِيمُ الْجَزِيرَةِ الزَّوَّاجَ، وَقَالَ لَهُ: سَأَخْتَارُ

لَكَ زَوْجَةً صَالِحَةً تُنَاسِبُكَ يَا شَيْخَ مَسْعُودَ،

بَيَدَ أَنَّهَا يَتِيمَةٌ تُوفِّي وَالِدَهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ

أَنْتَ إِلَى جَزِيرَتِنَا بِأَيَّامٍ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ

التَّجَارِ بِالْجَزِيرَةِ، وَهِيَ ذَاتُ حَسْبٍ وَنَسَبٍ
وَدِينٍ، فَقَالَ مَسْعُودٌ: عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، ثُمَّ
حَدَّوْا لَهُ وَقْتًا لِلْعُرْسِ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ عَرُوسُهُ
يُرَافِقُهَا بَعْضُ أَهْلِهَا، وَجَلَسَ مَعَ عَرُوسِهِ
سَاعَةً بِحُضُورِ أَهْلِهَا مُطَرِّقًا خَجَلًا، ثُمَّ
حَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ إِلَى عَرُوسِهِ فَإِذَا بِهِ يَرَى
عِقْدَ اللُّؤْلُؤِ يُطَوِّقُ جِيدَهَا، يَا اللَّهُ أَلَيْسَ
هَذَا عِقْدُ اللُّؤْلُؤِ الَّذِي رَدَدْتُهُ عَلَى صَاحِبِهِ؟
مِنْ أَيْنَ لَهَا بِهِ؟! رُبَّمَا لَيْسَ هُوَ، ثُمَّ أَعَادَ
النَّظَرَ ثَانِيَةً لِيَتَأَكَّدَ مِنْهُ، إِنَّهُ هُوَ، كَيْفَ جَاءَ

إِلَيْهَا؟ وَاخْتَلَسَ نَظْرَةً ثَالِثَةً وَرَابِعَةً إِلَى

العِقْدِ، وَهُنَا انْتَبَهَ الْحَاضِرُونَ إِلَى نَظَرَاتِهِ،

لَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَوَّلَ الْأَمْرِ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى

عَرُوسِهِ، وَلَكِنْ اتَّضَحَ لَهُمْ أَنَّ نَظْرَهُ فِي

كُلِّ مَرَّةٍ يَقَعُ عَلَى الْعِقْدِ، مَا قِصَّةُ هَذَا

الشَّيْخِ؟ وَانْتَبَهَ مَسْعُودٌ إِلَى مَا حَصَلَ، وَأَرَادَ

أَنْ يُصَحِّحَ مَوْقِفَهُ حَتَّى لَا يَظُنَّ أَهْلُ

العَرُوسِ بِهِ سُوءًا، فَقَالَ: لَكَأَنِّي رَأَيْتُ هَذَا

العِقْدَ قَبْلَ الْآنَ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ وَأَنْتَ

لَمْ تَزُرْ جَزِيرَتَنَا مِنْ قَبْلُ؟ وَزَوَّجْتُكَ هَذِهِ

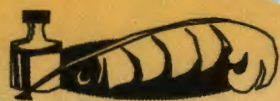
لَمْ تَخْرُجْ مِنْ قَصْرِهَا بَعْدَ وَفَاةٍ وَإِلَيْهَا
حَتَّى الْآنَ؟ قَالَ: لَمْ أَقُلْ إِنِّي رَأَيْتُهُ هُنَا،
وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْبَصْرَةِ، لَقَدْ فُقِدَ هَذَا
الْعِقْدُ مِنْ صَاحِبِهِ وَأَنَا الَّذِي وَجَدَهُ وَرَدَّهُ
عَلَيْهِ، فَمَنْ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلَ الطَّيِّبَ
فِيكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَذْكُرُهُ الْآنَ هُوَ
وَالِدُ عَرُوسِكَ، لَقَدْ سَافَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنْذُ
سِنِينَ فِي تِجَارَةٍ وَحَمَلَ مَعَهُ هَذِهِ اللَّالِيَّةَ
النَّادِرَةَ لِيَصْنَعَ مِنْهَا عِقْدًا لِابْنَتِهِ الْوَحِيدَةِ،
وَفِي الْبَصْرَةِ - كَمَا تَعْلَمُ - صُنَاعُ مَهْرَةٍ

يَثْقُبُونَهُ وَيَحْلُونَهُ بِالذَّهَبِ كَمَا تَرَاهُ الْآنَ،
نَحْنُ فِي جَزِيرَتِنَا نَسْتَخْرِجُ اللُّؤْلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ
ثُمَّ نَبِيعُهُ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَنْ يَصْنَعُ مِنْهُ
عُقُودًا، ثُمَّ أَرَدَفُوا قَائِلِينَ: لَقَدْ قَصَّ عَلَيْنَا
وَالِدُهَا قِصَّةَ ضِيَاعِ الْعِقْدِ وَأَنْزِعَاجِهِ مِنْ
ذَلِكَ، وَخَشِيَ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْجَزِيرَةِ
بِدُونِهِ، وَهُوَ الَّذِي وَعَدَ ابْنَتَهُ الْوَحِيدَةَ سَارَةَ
أَنْ يَقْدِمَ لَهَا مُذْهَبًا، فَاعْتَمَّ لِذَلِكَ، وَكَادَتْ
تَطِيرُ رُوحُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ لَمَّا فَقَدَهُ، ثُمَّ
فَرَجَ اللَّهُ كُرْبَتَهُ عِنْدَمَا وَجَدَهُ مَعَ شَابٍّ

وَسِينِم مِّنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَأَعَادَهُ إِلَيْهِ بِلَا
مُقَابِلَ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَأْخُذَ الْجَائِزَةَ الَّتِي
رَصَدَهَا مِنْ أَجْلِهِ، فَقَالَ وَهُوَ يُخْبِرُنَا
بِذَلِكَ: لَكُمْ تَمَنِّيْتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّابُّ
فِي جَزِيرَتِنَا لِأُزُوجِهِ ابْنَتِي لِأَمَانَتِهِ وَصَلَاحِهِ،
أَأَنْتَ إِذَا الشَّابُّ الَّذِي وَجَدَ الْعِقْدَ؟ يَا
سُبْحَانَ اللَّهِ لَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِرَغْبَةِ
عَبْدِ اللَّهِ، فَالْقَدَرُ سَاقَكَ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
لِتَتَزَوَّجَ مِنْ ابْنَتِهِ سَارَةَ.

سُرَّ الْجَمِيعُ لِهَذَا الْخَبَرِ الْمُبْرِحِ، كَمَا

سُرَّتِ الْعَرُوسُ بِذَلِكَ أَيْضًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
حَقَّقَ أُمْنِيَّةَ وَالِدِهَا بِالزَّوْاجِ مِمَّنْ أَحَبَّهُ لَهَا،
وَارْتَبَطَ مَسْعُودٌ مَعَ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ بِهَذَا
الزَّوْاجِ بِرَابِطِ الْمَصَاهِرَةِ، فَعَاشَ عِنْدَهُمْ فِي
هَنَاءٍ وَعِزٍّ وَسُودَدٍ، وَتَمَضَى الْأَيَّامُ وَيُرْزَقُ
مَسْعُودٌ مِنْ سَارَةِ بِوَلَدَيْنِ كَالْبَذْرِ جَمَالًا
سَمَاهُمَا عَبْدَ اللَّهِ وَيُوسُفَ، فَعَاشَا مَعَ
وَالِدَيْهِمَا فِي سَعَادَةٍ وَحُبُورٍ، وَأَخَذَا عَنْهُمَا
حُسْنَ الْخُلُقِ وَالتَّرْبِيَةِ الرَّفِيعَةِ.



عُودَةٌ مسعودٍ إلى البَصْرَةِ

حَنَّ مَسْعُودٌ إِلَى بَلَدِهِ بِرَغَمِ مَا هُوَ
فِيهِ مِنْ عِزٍّ وَنَعِيمٍ، لَقَدْ تَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهِ
مِائَتُ الشَّبَابِ مِمَّنْ تَعَلَّمُوا وَتَفَقَّهُوا فِي
الدِّينِ، فَأَرْسَلَ عَدَدًا مِنْهُمْ إِلَى الْبَصْرَةِ
لِلإِسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ، وَإِحْضَارِ الْكُتُبِ
الْمُتَنَوِّعَةِ، مِنْ فِقْهِهِ وَتَفْسِيرِ وَلُغَةِ عَرَبِيَّةِ

وَحَدِيثٍ، وَبَنَى مَكْتَبَةً زَوَّدَهَا بِهِذِهِ الْمَرَاجِعِ

الْمُهِّمَّةِ، إِضَافَةً إِلَى مَا نَسَخَهُ هُوَ بِخَطِّ يَدِهِ

خِلَالَ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ فِي الْجَزِيرَةِ، وَمَعَ كُلِّ

هَذِهِ الْإِنْجَازَاتِ، فَقَدْ حَنَّ إِلَى بَلَدِهِ وَأَخَذَ

يَتَطَلَّعُ إِلَى يَوْمِ الْعَوْدَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ

يُصَارِحُ بِهَذَا الْحَنِينِ أَهْلَهُ، بَلْ كَتَمَ كُلَّ

ذَلِكَ فِي صَدْرِهِ، وَكَانَ يَخْشَى أَلَّا تُوَافِقَ

زَوْجَتُهُ عَلَى الرَّحِيلِ مَعَهُ، فَيَحْدُثُ بَيْنَهُمَا

جَفْوَةٌ وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَانَ

يُحِبُّهَا، وَلَكِنْ قَدَّرَ اللَّهُ سَهْلَ عَلَيْهِ الْمُهِّمَّةِ،

فَهَا هُوَ ذَا بُرْكَانُ الرَّعْبِ يَنْشَطُ فِي الْجَزِيرَةِ
مِنْ جَدِيدٍ، وَبَاتَ يَقْذِفُ حِمَمَهُ الْبُرْكَانِيَّةَ
وَعُغْبَارَهُ الْمُحْرِقَ فَوْقَ رُؤُوسِ النَّاسِ، فَخَافَ
مِنْهُ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَهَرَعُوا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ
بَعِيداً عَنِ وَسْطِ الْجَزِيرَةِ، وَطَلَبَتْ أُمُّ
عَبْدِاللَّهِ مِنْ مَسْعُودِ الْخُرُوجِ مِثْلَ بَقِيَّةِ
السُّكَّانِ فَأَمَرَهَا أَنْ تَحْمِلَ مَا خَفَّ حَمْلُهُ
وَعَلَا ثَمَنُهُ، وَحَمَلَ كُلُّ مِنْهُمْ مَا يَسْتَطِيعُ
مِنْ مَتَاعٍ، ثُمَّ غَادَرُوا الْمَنْزِلَ إِلَى طَرَفِ
الْجَزِيرَةِ الْأَمِينِ قُرْبَ السَّاحِلِ، وَلَمْ تَنْسَ

زَوْجَةُ مَسْعُودٍ أَنْ تَحْمِلَ مَعَهَا عِقْدَ اللُّؤْلُؤِ.

جَلَسَ مَسْعُودٌ مَعَ زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ تَحْتَ

شَجَرَةٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ، قَرِيباً مِنَ الشَّاطِئِ،

يَنْتَظِرُونَ فَرَجَ اللَّهِ وَكَشَفَ هَذِهِ الْغُمَّةَ، ثُمَّ

وَقَعَ بَصَرُ مَسْعُودٍ عَلَى سَفِينَةٍ قَادِمَةٍ بِاتِّجَاهِ

السَّاحِلِ، وَلَمَّا اقْتَرَبَتْ ظَهَرَ فِيهَا تِجَارٌ مِنْ

أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَدِمُوا لِشِرَاءِ اللُّؤْلُؤِ وَالتَّوَابِلِ

وَالْأَخْشَابِ الثَّمِينَةِ، فَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ مَسْعُودٌ

وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِحَالِ الْجَزِيرَةِ وَتَفَرَّقَ

أَهْلُهَا وَطَلَبَ مِنْهُمْ الْمُكْتَ رَيْثَمَا يُكَلِّمُ

مَعَارِفُهُ لِتَأْمِينِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ بَدَلًا أَنْ
يَعُودُوا خَائِبِينَ، وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ بَدَأَتْ
الْبِضَاعَةُ الْمَطْلُوبَةُ تَصِلُ إِلَى الْمَرْكَبِ،
وَاقْتَرَبَ مَوْعِدُ مُغَادَرَةِ السَّفِينَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ،
وَهُنَا حَنَّ مَسْعُودٌ إِلَى بَلَدِهِ وَصَارَحَ زَوْجَتَهُ
بِذَلِكَ فَقَالَ: مَا رَأَيْكَ يَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ
بِالذَّهَابِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِنَعِيشَ بَقِيَّةَ عُمرِنَا
هُنَاكَ؟ أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ سَتَسْعَدِينَ بِسُكْنَاهَا،
كَمَا سَيَسْعَدُ وَلَدَانَا أَيْضًا، فَالْبَصْرَةُ مَدِينَةٌ
كَبِيرَةٌ آمِنَةٌ تَعُجُّ بِالنَّاسِ وَفِيهَا مَجَالٌ وَاسِعٌ

لِلدِّرَاسَةِ وَالْعَمَلِ، أَجَابَتِ الزَّوْجَةُ: وَقَصَرْنَا

الْجَمِيلُ لِمَنْ نَتْرُكُهُ؟ وَكَيْفَ نَعِيشُ هُنَاكَ مِنْ

غَيْرِهِ؟ قَالَ مَسْعُودٌ: لَا تَخْشَى سَنُسَلِّمُهُ

لِزَعِيمِ الْبَلَدِ، وَفِي الْبَصْرَةِ سَنَجِدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

بَيْتًا مُنَاسِبًا نَعِيشُ فِيهِ، لَا تَقْلَقِي... وَبَعْدَ

نِقَاشٍ وَتَقْلِيلٍ لِلْأُمُورِ اقْتَنَعَتِ الزَّوْجَةُ بِالسَّفَرِ

إِلَى الْبَصْرَةِ، فَرَكِبُوا مَعَ التُّجَّارِ فِي سَفِينَتِهِمْ

وَانْطَلَقُوا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ يُبْحِرُونَ لِيَالِي وَأَيَّامًا

فِي بَحْرِ هَادِيٍّ، كَأَنَّمَا ذَلَّلَهُ اللَّهُ لَهُمْ، فَقَدْ

كَانَ مَسْعُودٌ خَائِفًا مِنْ سَفَرِ الْبَحْرِ فَتَجَرَّبَتْهُ

مَعَ هَذَا الْبَحْرِ مَرِيرَةً، لِذَلِكَ لَزِمَ الذِّكْرَ
وَالدُّعَاءَ طِيلَةَ أَيَّامِ الرِّحْلَةِ إِلَى أَنْ لَاحَتْ لَهُ
مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ فَأَنْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ، وَقَالَ: يَا
أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ أَبْشِرِي فَهَذِهِ هِيَ الْبَصْرَةُ، وَرَسَتْ
السَّفِينَةُ فِي الْمِينَاءِ فَنَزَلَ مَسْعُودٌ وَأَسْرَتْهُ مِنْهَا
ثُمَّ حَمَلَ الْحَمَّالُونَ أَمْتِعَتَهُمْ وَأَنْطَلَقُوا بِهِمْ
إِلَى وَسْطِ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ مَسْعُودٌ يَنْظُرُ طَوْلَ
الطَّرِيقِ إِلَى مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالْحَوَائِثِ
وَهُوَ مُسْتَغْرِبٌ أَشَدَّ الْاسْتِغْرَابِ، لَقَدْ تَغَيَّرَتْ
الْبَصْرَةُ.. تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ، لَكَأَنِّي أَذْخُلُهَا

لأَوَّلِ مَرَّةٍ، ثُمَّ أَمَرَ الْحَمَّالَيْنِ بِالتَّوَقُّفِ وَأَخَذَ
يَنْظُرُ فِي وُجُوهِ الْمَارَّةِ لَعَلَّهُ يَتَعَرَّفُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ أَصْدِقَاءِ الْأُمْسِ، لَكِنْ خَابَ ظَنُّهُ،
لَقَدْ غَابَ عَنِ الْبَصَرَةِ عِشْرِينَ عَامًا، فَلَمْ
يَعُدْ يَعْرِفُ أَوْ يُعْرِفُ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ دَارِ
يَسْتَأْجِرُهَا فَدَلُّوهُ عَلَى دَارِ حَسَنَةٍ فَاسْتَأْجَرُهَا
وَنَزَلَ فِيهَا لِيَسْتَرِيحَ، وَبَعْدَ أَخْذِ قِسْطٍ مِنَ
الرَّاحَةِ بَدَأَ يَسْتَعْرِضُ فِي ذَهْنِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ
أَنْ يَفْعَلَهُ لِيُؤْمِنَ لَهُ وَلِأُسْرَتِهِ حَيَاةً سَعِيدَةً.



عَقْدُ اللّوْلُوْ يَظْهَرُ مِنْ جَدِيْدٍ

فَكَرَّ مَسْعُوْدٌ اَنْ يَّعُوْدَ اِلَى عَمَلِهِ
السَّابِقِ فِي نَسْخِ الْكُتُبِ، وَلَكِنَّهُ صَمَّمَ اَنْ
يَكُوْنَ مُعَلِّمًا هَذِهِ الْمَرَّةَ، فَقَرَّرَ اَنْ يَشْتَرِيَ
مَحَلًّا فِي مَوْقِعٍ مُّنَاسِبٍ، وَيُوَسِّسُهُ تَأْثِيثًا
فَاجِرًا، وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى الْمَالِ لِيُوْمِّنَ هَذِهِ
الْمُتَطَلِّبَاتِ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي غَمْرَةِ التَّفَكُّيرِ

لَا حَظَّ لَهُ زَوْجَتُهُ وَرَأَتْ أَنَّ أَمْرًا مَا يَشْغَلُهُ،
فَقَالَتْ: مَا لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَرَدَّ
مَسْعُودٌ: لَا شَيْءَ يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَتْ:
لَا، هُنَاكَ شَيْءٌ مَا يَشْغَلُكَ يَا عَزِيزِي، أَنَا
زَوْجَتُكَ صَارِحَنِي أَرْجُوكَ، قَالَ مَسْعُودٌ:
حَسَنٌ، إِنَّ مَا يَشْغَلُ تَفْكِيرِي تَأْمِينُ الْعَمَلِ
لِلْكَسْبِ، قَالَتْ: وَمَا الْمُسْكِلَةُ؟ وَأَنْتَ مَا هِرُّ
فِي النَّسَخِ وَهَذَا عَمَلٌ رَائِجٌ فِي الْبَصْرَةِ،
قَالَ: هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ يَنْقُصُنِي الْمَالُ
لَأَشْتَرِيَ بِهِ حَانُوتًا، قَالَتْ: لَا تَقْلُقْ لَقَدْ

أَحْضَرْتُ مَعِيَ عِقْدَ اللَّوْلُؤِ، وَهُوَ كَمَا تَعْلَمُ
ثَمِينٌ، وَأَنَا أَهْبُكَ إِيَّاهُ، فَبِعْهُ لَعَلَّ ثَمَنَهُ
يُسَاعِدُكَ فِي شِرَاءِ الْحَانُوتِ، قَالَ مَسْعُودٌ:
كَيْفَ أَبِيعُهُ وَهُوَ أَثِيرٌ عِنْدَكَ وَلَهُ ذِكْرِي
عَزِيزَةٌ عَلَيْكَ، إِنَّهُ هَدِيَّةٌ وَالِدِكَ، قَالَتْ: كُلُّ
شَيْءٍ يَهُونُ مِنْ أَجْلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، خُذِ
الْعِقْدَ وَتَصَرَّفْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَتْهُ وَنَاوَلَتْهُ
إِيَّاهُ، فَأَخَذَهُ مَسْعُودٌ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى السُّوقِ
وَعَرَضَهُ لِلْبَيْعِ فَلَمَّا رَأَهُ تُجَّارُ اللَّوْلُؤِ تَهَافَتُوا
عَلَيْهِ، كُلُّ يُرِيدُ شِرَاءَهُ لَأَنَّهُ عِقْدٌ نَادِرٌ،

فَبَاعَهُ مَسْعُودٌ لِصَاحِبِ الثَّمَنِ الْأَعْلَى فَبَلَغَ

عِدَّةَ آلَافٍ مِّنَ الدَّنَانِيرِ فَحَمَلَهَا إِلَى الْبَيْتِ

مَسْرُوراً وَأَوْدَعَهَا عِنْدَ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ بَدَأَ

يَبْحَثُ عَنْ حَانُوتٍ مُّنَاسِبٍ إِلَى أَنْ وَجَدَهُ

فَاشْتَرَاهُ، كَمَا اشْتَرَى بَيْتاً فَخْماً، فَانْتَقَلَ إِلَيْهِ

مَعَ زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ، وَبَدَأَ فِي تَجْهِيزِ

الْحَانُوتِ بِالْكَرَاسِيِّ وَالْمَنَاضِدِ وَأَدَوَاتِ

الْكِتَابَةِ، فَاسْتَقْدَمَ الْكُتَّابَ لِلْعَمَلِ عِنْدَهُ، لَقَدْ

ابْتَكَرَ طَرِيقَةً جَدِيدَةً لِلْكِتَابَةِ، فَكَانَ يَقِفُ فِي

وَسَطِ الْحَانُوتِ وَيُمْلِي عَلَى الْكُتَّابِ مِنْ

النسخة الأصلية فيكتبون جميعاً ما يملئ
عليهم مسعود ثم يتجول بينهم ويراقب ما
يكتبون، تماماً مثلما يفعل المعلمون اليوم
في حصة الإملاء، وبهذه الطريقة أصبح
يُنجز عدة نسخ من الكتاب الواحد في
أيام معدودة، ثم يدفعها إلى التجليد
الفاخر، فتصبح صالحة للتوزيع، وهكذا
وفر مسعود في الأسواق الكتب القيّمة
لطلاب العلم مساهمة منه في نشر العلم
فلَمَعَ اسمُه واشتهر في الأوساط العلميّة،

وَعَرَفَهُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ، أَمَّا أَوْلَادُهُ فَلَا زَمُوا
الْعُلَمَاءَ، فَبَرَعَ عَبْدُ اللَّهِ فِي الطَّبِّ، كَمَا بَرَعَ
يُوسُفُ فِي التِّجَارَةِ، وَعَاشَتْ أُسْرَةُ مَسْعُودٍ
فِي سَعَادَةٍ وَهْنَاءٍ.

جَلَسَ مَسْعُودٌ مَرَّةً مَعَ زَوْجَتِهِ
وَوَلَدَيْهِ، فَقَالَ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ قِصَّتِي يَا
أَبْنَائِي؟ لَقَدْ أَعْجَبَنِي الْعِقْدُ لَمَّا وَجَدْتُهُ
وَهَمَمْتُ أَنْ أَخْتَفِظَ بِهِ لِأَنَّهُ جَمِيلٌ أَسْرَرُ
فُؤَادِي، وَكُنْتُ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَيْهِ لِفَقْرِي
وَعِوْزِي، لَكِنِّي خِفْتُ اللَّهَ فَرَدَّدْتُهُ عَلَى

صَاحِبِهِ دُونَ أَنْ آخُذَ مِنْهُ مَالًا لِقَاءَ ذَلِكَ،
وَقَدْ تَبَيَّنَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ وَالِدُ أُمَّكُمْ، أَيْ
جَدُّكُمْ وَآثَرْتُ بِعَمَلِي أَنْ أَرْضِيَ رَبِّي
وَأَعْصِي هَوَى نَفْسِي، ثُمَّ سَأَفْنِي الْقَدَرُ إِلَى
جَزِيرَةِ وَالِدَتِكُمْ وَاقْتَرَنْتُ بِهَا دُونَ أَنْ أَذْرِئَ
أَنَّهَا صَاحِبَةُ الْعِقْدِ، وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الْبَصْرَةِ
وَلَا مَالَ عِنْدَنَا، فَإِذَا بِنَا كُلُّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى
الْعِقْدِ، ثُمَّ بِغَنَاهُ وَاسْتَفَدْنَا مِنْهُ جَمِيعًا،
وَأَخَذْنَا مَالَهُ حَلَالًا، لَقَدْ ادَّخَرَهُ اللَّهُ لَنَا
لِيَوْمِ الْحَاجَةِ، يَا اللَّهُ مَا أَجَلُّكَ وَمَا

أَعْظَمَكَ؟ أَنْتَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ.

فَلَا تَسْتَغْجِلُوا رِزْقَكُمْ يَا أَبْنَائِي،

وَاصْبِرُوا فَسَيَأْتِيَكُمْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ حَلَالًا
طَيِّبًا.



معاني الكلمات

الكلمة	معناها
فَرَّطْتُ	ضيعت
مُتَرِّعٌ	ملآن
ترقرقت	ظهرت الدمعة سابحة في العين
الحشرجة	صوت يخرج من الحلق قبل الموت
حط الأنقال	أنزل الأحمال
المُكُث	البقاء والإقامة
عالة	يحتاج إلى مَنْ يرعاه
لفحة كثيرهم	حرّ النار من فرن الحدادين
أَصَاخ	أصغى واتبه
الوارقين	حرفة الكتابة والخط
ينسخ	يكتب
الشُرود	غير حاضر الذهن والتفكير

الكلمة	معناها
المحتد	الأصل الكريم
الواق	المحبّ بعطف
الفتور	التعب والإرهاق
عتيا	كَبُرَ ووصلَ إلى حدّ الهرم
تذوي	تضعف وتصغر بعد النشاط
نُسفها	مازها المغذي لها
فلذة	قطعة
غريزة	دافع مخلوق في طبع الإنسان وتصرفه
أردف	أتبع
المنية	الموت
بالقسط	بالعدل والسوية
الْكُتَاب	المدرسة ودار العلم
نبغ	تفوق بذكاء

الكلمة	معناها
أغرمه	أخسره
احتساباً	أدخر أجره عند الله ليحسبها له مع الحسنات
شَحَّ	قَلَّ
متن	ظهر
مكلوم	مجروح
لُبَّةُ الماء	أمواجه
الهَؤُل	الرعب
تَخَوَّرَ	تضعف
تحسس	تلمس
سِنة	نعاس
قَاطِبة	كلهم، جميعاً
رصدها	عين مبلغاً من المال للجائزة
خمود	هدوء، بلا نشاط
حمام	الأحجار الحامية والمنصهرة
الحانوت	الدكان، محل العمل والبيع والشراء
أثير	محبب إلى نفسي
اقتربت	تزوجت

الكلمة	معناها
بشاشة	بابتسامة ومودة
اقتنى	امتلك الكتب لتبقى عنده
التَّجَابَة	الذكاء وسرعة الفهم
جَسَعَ	طمع
مرغماً	مجبوراً
الطارىء	الحادث
باهظة	غالية مكلفة
دخله	ما يدخل إليه من المال في اليوم أو في الشهر
مدخرة	مخبأة ليوم الحاجة
سارية	عمود في المسجد يجلس الشيخ عنده ليلقي درسه
نُظِّمَتْ	جمعت
كُرِّيتِي	الشدة والضيق
إبريسم	حرير
وديعة	مخبأة على شكل أمانة
أنكره	أخفيه عن صاحبه
أسارير	الأماكن التي تظهر عليها الفرح كالوجه والجبين والوجنتين والشفتين

الفهرس

الموضوع	الصفحة
عَقْدُ اللؤلؤ	٥
مسعود يتلقى العلم	١٦
مسعود في البصرة	٢١
العقد الثمين	٣٣
النفس المطمئنة	٥٠
الرحلة	٥٥
شيخ الجزيرة	٦٦
عودة مسعود إلى البصرة	٧٦
عقد اللؤلؤ يظهر من جديد	٨٤
معاني الكلمات	٩٢

